

في الأدب المقارن

الخيال

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ غفرى أبو السعود

الخيال، أو القدرة على انتزاع شتى الصور الذهنية من الواقع واستحضارها والتصرف فيها، من المواهب التي يمتاز بها الانسان على سائر الاحياء، ويمتاز بها النابغة على سائر الناس. رقى العلم رهين برقيه، واتساع الادب متصل باتساعه، وهو بين الجماعات الاولى مصدر تلك الاساطير والافهام التي تسود بينهم، كما أنه مصدر ما تنص به اللغات من مجازات وتشبيهات، بها تنسج جوانب اللغة وجوانب التفكير معا أيما اتساع، ولولا الخيال لالتزم الفكر الانساني الواقع المتحجر أي التزام

والخيال قوام جانب عظيم من الادب، إن لم يكن قوام الجانب الارقي فيه، إن لم يكن قوام الادب جميعاً: فبالمجازات والتشبيهات يتأني للأديب أن يصور شعوره ويبرز تفكيره، إذ يمثل لنضرة الخد بنضرة الورد، ولطامة البطل بهيبة الأسد، ولجيشان المعركة بدافع الآذى، وهلم جرا. وبالخيال يستطيع الأديب أن يسبك موضوعه ويجمع أطرافه، وينبذ ما لا حاجة به إليه من تفصيلات قد تشوه ما هو بسيله، ويضفي ثوباً من الجمال والانسجام على ما ينشئ. والخيال أظهر ملكات الشاعر وأول مميزات الشعر التي تفرق بينه وبين النثر

وارتقاء الخيال واتساعه وكثرة آثاره أم ظواهر دخول الادب في طوره الفنى: فانه إذا خرجت الأمة من بداوتها وعزلتها وبسطت سيادتها واتصلت بحيرانها القريين والبعدين، وتحضرت وتفتت، اتسعت أذهان أبنائها وترامى خيالهم وتصوروا من الحقائق والمعاني والممكنات ما لم يكونوا يتصورون، وغزر المعين الذي يستمدون منه التشبيهات والاستعارات، ويتزعمون منه الحكم والأمثال، ويتوفر الفراغ ويتسع للجهود الأدبي المتصل، فنظير القصة والدرامة والقصيدة الطويلة، ويخلق الأدباء في أجزاز الخيال وآماد الماضي والمستقبل، مبتعدين عن دواعي الحاضر الحازية وبجالاته الضيقة، ولا يبلغ الادب أوج رقيه

وقد أدركت الدولتان الغريبتان الكبيرتان، أعني بريطانيا العظمى وفرنسا، ما تقتضيه هذه العوامل والظروف الجديدة من تغيير عميق في سياستيهما، وخصوصاً آراء ما تبديه الدولتان الفاشستيتان أعني ايطاليا وألمانيا من نشاط متواصل في الاستعدادات العسكرية؛ فاما فرنسا فقد اقتنعت بأن الموائيق والعهود الدولية لم تبق لها قيمة يعتمد عليها وان ألمانيا النازية بعد أن حطمت كل ما تبقى من عهودها في معاهدة الصلح وفي لوكارنو، وأخذت تستأنف قواها العسكرية القديمة، لا يمكن ردها وكبح جماح عدوانها وأطماعها الا بمضاعفة الالهات العسكرية، وهذا ما تفعله اليوم هي وحليفتها روسيا السوفيتية التي تحذر من عدوان ألمانيا مثل ما تحذر فرنسا؛ واما بريطانيا العظمى، فقد اقتنعت بعد مأساة الحبشة بانتهار فكرة السلامة المشتركة وعبث الاعتماد عليها في رد الاعتداء المدبر، وأدركت ما يهدد سلامة الامبراطورية البريطانية من جراء ظهور الفاشستية الايطالية بمظهر الظافر المتحفر؛ فاخذت تستدرك بسرعة مدهشة ما فاتتها من الالهات العسكرية، ووضعت برنامجاً هائلاً للتسليح يكفل لها تفوقها القديم في البحر والهواء ويمكنها من أن تعود فتعلى كلمتها وارادتها على أولئك الذين يتحرشون بها ويحاولون تحديها ومنافستها، وتزداد العلاقات توثقاً بين الدولتين الغريبتين الكبيرتين، يجمع بينهما الخطر المشترك، والمصالح المشتركة، وروابط الديمقراطية

وهكذا تعود أوروبا الى ما كانت عليه قبل الحرب: معسكران خصيمان يعمل كل منهما لاحراز التفوق في الالهات العسكرية، ويسيطر كل منهما بنفوذه على عدد من الدول الصغيرة؛ وهذان هما معسكر الفاشستية، تقوده ألمانيا وايطاليا، ومعسكر الديمقراطية تقوده بريطانيا وفرنسا؛ وهكذا تعود الدبلوماسية الاوربية الى وسائلها القديمة من عقد المحادثات العسكرية والمعاهدات السرية والاعتماد على القوة الغاشمة

دقيقا لا يدع شاردة ولا واردة، كقصص هاردي، ودرامات جازوردي، ولكل من الضربين متعة ولشغف الانجليز بسبجات الخيال، وميلهم إلى إطلاق الفكر في أجوازه، لجأوا في شعرهم ونثرهم إلى تصوير حوادث التاريخ وغرائب الأساطير، فاستقى شعراؤهم وكتابهم عذب القصص ومنه من تاريخ إنجلترا وتواريخ اليونان والرومان وبنى إسرائيل وغيرهم، واتخذوا من خرافات الأمم مجالا لفهم، فعرض سبنسر وتينسون وكولردج وغيرهم تلك الخرافات عرضا شعريا رائعا مرصعا بحميل الوصف وبدائع المناظر الطبيعية، وشائق مواقف الحب والبطولة.

ومن ثم امتلأ الأدب الانجليزي بأسماء الشخصيات الخيالية التي اخترعها الأدباء من تخيلاتهم ولم يكن لها قبلهم وجود أو كان لها وجود مبهم في عالم الخرافة فأخرجوها بعقرياتهم إلى عالم النور والوضوح، وألبسوها ثوبا من الجمال والجلدية، وأصبح بعض هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين امتلأت بذكريهم وأخبارهم الملاحم والقصص والشعر والنثر، أعلاما على طبائع في الإنسان معروفة، ورموزا على حقائق في النفس البشرية مشهودة، فشكسبير مثلا لم يكن يدع خلفا إنسانيا نبيلًا أو ضيعة لآصوره في رواياته وخلق ما لا يعد من الشخصيات الحية، مثل هملت وروميو وجوليت وياجو وشيلوخ، وغيرهم ممن صار لهم وجود قائم في عالم الأدب كوجود أعلام الماضي في عالم التاريخ.

لم يجر الأدب العربي إلى هذا المدى من الخيال، فلم تكن فيه ملاحم ولم تكن المطولات من هم شعرائه، ولم يرتق فيه القصص ولم يحتو على شخصيات متخيلة من خلق الأدباء، وظل الحاضر القريب والواقع المحقق ديدن أدبائه، فالأديب العربي كان شديد الإيجاز في مقاله وتعبيره عما يحس، يعبر عن أفكاره أشتاتا كلها عن له حافظ إلى الكتابة، لا يدخر أفكاره ولا يربط منها حاضرا بماض، بل يرسلها الشاعر على السجية أياتا محكمة النسيج موجزة البيان، ويرسلها الكاتب روايات قصيرة متتابعة منسوبة كل رواية منها إلى صاحبها أو راويها أو شهودها؛ فأحسن أشعار المتنبي حكم موجزة متتابعة مستقل كل منها بيت لا تكاد تجمعها علاقة؛ وقوام كتب كثيرة كمؤلفات الجاحظ والنعالي وابن عبد ربه روايات وشواهد متتابعة، لا يكاد يكون للأديب فضل غير جمعها وتبويبها كان الشعر الجاهلي محدود الخيال قريب المأخذ لمكان أربابه من البداوة وبعدهم عن الثقافة، فلما تحضر العرب وتفقهوا واختلطوا بالأمم واطلعوا على أحوال الأقطار البعيدة، اتسع من

حتى يرتقى الخيال فيه هذا الارتفاع وحتى يشغل أكثر جوانبه وللخيال في الأدب الانجليزي مكان رفيع وأثر بعيد شامل يمثل في موضوعات الأدب وأشكاله وطرائق تناول الأدباء لما هم بسبيله؛ فالأديب الانجليزي غزير العاطفة، إذا جاشت أطلق لها العنان واسترسل مع خياله، وأثار به منظر طبيعي أو غناء طائر أو ذكرى طارئة أو أثر من آثار الغابرين أو أسطورة من أساطيرهم شتى الأحلام والأطراف، وتناهت به عاطفته إلى حدود الأمانى وآفاق الماضي والمستقبل، وهذا الاسترسال مع الخيال إذا أثارته فكرة رئيسية هو مرجع وحدة الفصيدة في الانجليزية.

وهناك عدا هذا الخيال المنبث في كل مناحي الأدب أشكال خاصة من الأدب قوامها الخيال، ينهض بكيانها ويرثق وشائجها. وهذه هي الملاحم الطوال في الشعر والقصص الممثلة أو المقروءة شعرا أو نثرا، ففي هذه لا يلتزم الأديب الواقع المجرد بل يفترق عنه افتراقا جسيما، ويؤلف من شتى أفكاره وتجاريه وأمانيه وصور الحياة التي مرت به، عالما يجيش بالحياة والحركة ويموج بالعواطف والترازع ويفيض بالجمال والامتناع؛ بهذه الضروب القائمة على أساس من التخيل المحض يحفل الأدب الانجليزي.

قد عالج الملاحم والمطولات من القصائد ملتون وسبنسر وهاردي ووردزورث وكثيرون غيرهم. وأشعار الملاحم تنعج بالمردة والجبايرة والآلهة، وتحفل بخوارق الأعمال وجسام البطولة، وهي على رغم هذا لا تخرج عن عالمنا الانساني ولا تغفل النفس الانسانية، بل تظل نوازع تلك النفس ومشاغلتها هي الهدف الوحيد الذي يرمى إليه ناظموها؛ إذ فيها يتخذ أولئك الأرباب والجبايرة طبائع الناس وميول الأفراد، وإن فاقوا البشر قوة وعظما؛ ومن هنا يتأق للشاعر أن يبسط آراءه في ميدان متسع وإلى مدى فسيح، فيستعرض مشاغل عصره ويث خواجه نفسه، فالخيال هنا لا يعدو الحقيقة وإنما يوضحها أحسن توضيح، فضلا عما يتمتع النفس به من قصص متنق وجمال وجلال.

وفي الأدب الانجليزي ما لا يعد من قصص في الشعر والنثر ممثلة ومقروءة، وقوام القصة بطبيعتها الخيال، وإن تراوح نصيبها منه، فهناك القصص التي ترمي إلى أغوار الماضي وتدرج حول عظماء التاريخ والأساطير، من طموح يبيع نفسه للشيطان كي يمينه الشيطان على إدراك مطامحه، إلى دائن يتقاضى دينه من لحم غريمه ودمه، كما في روايات مارلو وشكسبير. وهناك القصص الواقعية التي تلتزم الحقيقة إلى حد بعيد، وتصور المجتمع الحاضر تصويرا

جرام ذلك خيالهم وبان أثره في شعرهم ونثرهم ، فالمحدثون من الشعراء لاشك أبعدخيالا وأكثر تفننا في التشبيهات من الجاهليين .
وظهر ضرب من القصص الخيالي يتجلى في مقامات بديع الزمان ، ورسالة الغفران ، ففي هذه وتلك مواقف وحوادث كلها من اختراع الخيال ؛ ثم هناك الروايات والأخبار العديدة التي كان يخترعها الرواة والكتاب ، يطلبون الاغراب والتطرف والرواج ، أو يؤيدون الحجج والمذاهب .

يد أن هاتيك جميعا آثار ضئيلة الشأن ، وهي إذا قيست بما في الانجليزية من سبحات الخيال ، لم تكن إلا شبيهة بطيران الدجاجة الخفيف مقبسا بتحليق البازي الكاسر ؛ ورسالة الغفران على جمال فكرتها ومشابها لها في آداب الأمم الكبيرة في جريان حوادثها في عالم الخلد ، وامتلأها بممتع المواقف والمحاورات ، مكتظة بمسائل النحر والأدب النظرية العميقة ، التي كان كثير من الأدباء ينفقون أعمارهم في غياها غافلين عما هو أهم منها من حقائق الحياة وجمالها ، ولم يكن الخيال ولا الجمال ولا القصص غرض المعري الصحيح حين أملاها ، وإنما كانت تلك المسائل اللغوية هي مقصده الأول ؛ ومقامات البديع على جمالها وامتداد البديع إلى اختراع شخصية أبي الفتح فيها ، مكتظة كذلك بالألعاب اللفظية والبراعات اللغوية ؛ فالمقامات ورسالة الغفران جبلتان على أن تكونا خطوتين إلى مابعدهما ، ومرحلتين في طريق نمو القصص الصحيح وازدهار الخيال الراق ؛ يد أن ذلك النحو لم يطرده ذلك الرقي وقف في أول الطريق . وإن من العجائب حقاً أن يكون أعظم أثر خيال في الأدب العربي من صنع شاعر كيف محجوب عن آفاق الحياة ومباهجها

فكبح عنان الخيال كان دأب أدباء العربية حتى بعد دخول الأدب عصره الفني ، والفكرة التي تحظر للأدب الإنجليزي فيحرك حولها قصة تموج بشي الصور المنزعجة من الحياة ، أو ينظم حولها قصيدة طويلة تجمع أشتات الأفكار والمعاني ، يكتبني الأدب العربي بصوغها في بيت شعر محكم يذهب مثلا ويروح بإيجازه وشموله ، لا بتقصيه واستيعابه ، فكل بيت من أبيات المتنبي السائرة يحوى نظرة نافذة إلى حقائق الحياة ، هي بنفسها محور صالح أن تدور حوله قصة أو درامة ، بينما الأدب العربي قد أودعها أوجز لفظ وأعمه

وقد نظم شلي قصيدة في قرابة مائة بيت ، حين استرعى تفكيره هبوب ريح الشتاء الباردة في إيطاليا ، فصور عصفها بالأوراق الجافة ، ودفعها البذور إلى حيث تنام في التربة حتى

ينبها الربيع بدقته وطيب أوانه ، وشبه ثوران عاصفتها على الأفق بالشعور المتهدلة عن رأس مايناد إحدى العرائس الخرافية ، ووصف اقشعرار النبات المسائي في قاع المحيط لدى إحساسه مرور تلك الرياح ، ثم طلب إلى الريح أن ترفعه كما ترفع تلك الأوراق وتدفعه كما تدفع تلك البذور ، ونفخ فيه من قوتها ، وتتخذة نايًا لها ، عله يستطيع أن يطير بأجنحتها ، ويذو بين الخلق بذور أفكاره الإصلاحية التي كان أميناً لها طول حياته . ولشكبير مقطوعة عن ريح الشتاء أيضاً في رواية دكا تشام ، يسترسل فيها في التأمل على ذلك النحر ؛ إنا الشاعر العربي فإذا استرعى انتباهه هبوب الريح فيودع خاطره أوجز لفظ ، واصفا تهبج الريح لذكرياته أو يحملها إياها سلامه إلى أحبائه ، كما قال بشار :

هوى صاحبي ريح الشمال وإنما أحب لقلبي أن تهب جنوب وما ذاك إلا أنها حين تنهى تنامي وفيها من عبيدة طيب والغريب أنه برغم غنى الأدب الإنجليزي بآثار الخيال ونادرة تلك الآثار في الأدب العربي ، نرى كلمات الخيال وخيال الشعراء والخيالة وغيرها كثيرة التداول في العربية نادرة الوجود في النقد الإنجليزي ؛ وإنما كان نقاد العربية يطلقون اسم الخيال على أبعد الأقوال عن مجال الخيال الصحيح ، يظفونه على ماذرج عليه الشعراء المداخون من اختراع مواقف الغرام في استهلال فضاءهم ، وتلفيق صفات الجود والبأس لمدوحهم ، ومن ثم اشتهر البحري بالخيال ، لا لأنه دمج القصص المحكم أو نظم المطولات الرائعات بل لأنه كان من أمضى الشعراء في بابي المديح والغزل الاستهلال ، ومن أكثرهم ذكراً للأطراف والوداع واللقاء ، وليس تحت مثل هذا الخيال طائل ، إذ قوامه التكلف والمحال والا ينال في البعد عن حقائق الحياة والشعور ، بينما اخص خصائص الخيال الفني الصحيح صدق البيان للشعور الصحيح في أعماقها وأرحب آفاقها فإذا قال بشار إن الجود من كف مدوحه يعدى ، وقال أبو تمام إن مدوحه لا يستطيع قبض أنامله لأنه تعود بسطها بالعطاء ، وقال المتنبي إن أسنان صواحيه يرد خشى أن يذيه من حر أنفاسه فكان هو الذائب من حر أشواقه ، وإذا شبه ابن المعتز الهلال بمنجل يحصد نجوم الليل حصداً ، أو شبه ابن خفاجة النهر وعشب ضفافه بهذب يحف بمقلة زرقاء ، فقد باعدوا جميعاً وأغربوا وخالفوا حقائق المنطق والشعور ، وجاموا بما هو أشبه ببعث الصبيان وهذر المخمورين ، وكان قولهم أبعد الأشياء عن الخيال ، فالخيال ليس هو تجاهل حقائق الحياة وتحديها والتفنن في مناقضتها ، وإنما هو قدرة الفكر على استيعابها والاشتغال على قريبها وبعيدها ، والتصرف فيها

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- ٤ -

الرياسة المصرية - التوفيق بين الديانة والفلسفة

ان ذبوع عقيدة تأليه الملك أو حلول روح القدس في جسده الذي حدثناك عنه في الكلمة السابقة قد خلق أمام العقل المصري مشكلة معقدة عويصة يمكن أن تعتبر اللبنة الأولى من بناء الفلسفة المصرية ، وأن تعد محاولة حلها أقدم المحاولات الفلسفية التي عرفها تاريخ العقل البشري ، لأن عهدا يصعد في سلم الماضي أكثر من ستة آلاف سنة ، وأين من هذه الفلسفات الأخرى التي لا يتجاوز أقدمها بضعة عشر قرنا قبل المسيح ؟ تلك المشكلة التي نشأت عند المصريين من تأليه الملك هي : « إننا نشاهد أن الملك يموت كما تموت عامة الناس فكيف يموت الإله الذي أولى صفاته الخلود ١٩ » .

لم تكد هذه المشكلة تأخذ مكانها في الحياة الفكرية المصرية حتى وجد المتفلسفون الأولون لها حلا وهو أن فرعون لا يموت كما يموت الناس ، وإنما حين يعجز جسمه المادي عن النشاط العملي يخرج منه السر الإلهي أو الروح القدس ، ليحل في جسم ابنه الشاب الممتلئ قوة ونشاطا . وإذا فروح « هوروس » هي التي تحكم في كل هذه الأجساد المختلفة المسماة بالفراعنة والتي أطلق على كل جسد منها اسم خاص في الظاهر فحسب ، ولكن هذا الجواب لا يشفي غليل المتفلسفين الباحثين عن خفايا الكون وأسرار الوجود ، لأنهم لا يكادون يتلقون هذا الجواب حتى يصطدموا بالتقاليد الدينية التي تصرح بأن فرعون وهو في قبره بعين ابنه على الحكم وينصحه في المواقف الحرجة . ومن هذا تنشأ مشكلة فلسفية أخرى وهي « كيف تقولون إن روح (هوروس) تغادر جسم فرعون المائت بعد تجزئه عن النشاط إلى جسم ابنه الشاب الشبيط ثم

والفن في عرضها ، ولا غرو إذ كانت تلك نظرة نقاد العربية إلى الخيال أن قالوا إن أعذب الشعر كذبه ، والحق أن أعذب الشعر أصدقه ، وأجود الخيال أكثره اشتغالا على الحقيقة وغزارة آثار الخيال في الأدب الانجليزي ترجع لا شك إلى اختلاف مناظر الطبيعة في إنجلترا وتعدد أحوال الجو ، ثم هي ترجع إلى اتساع أذهان الانجليز باقتباسهم حضارة أوروبا ومساهماتهم فيها ، وإلى الكشوف الجغرافية العظيمة التي عاصرت نهوض الأدب الانجليزي ، وهي ترجع أيضاً إلى اطلاع الانجليز على الأدب اليوناني الحافل بروائع الحوادث والأساطير ، المملوء بأشعار الملحم والدرامات ، فقد كان لشعراء الانجليزية وكتابتها من ذلك معين لا يفتى ، وكان الاطلاع على التراث الكلاسي بمثابة كشف جغرافي آخر واطلاع على عالم ثان غير هذا العالم المعهود ، مما أطلق الأذهان إلى غايات الخيال ، وكان للأدب العامي في ذلك أثره أيضاً وترجع ضالة حظ الأدب العربي من الخيال الصحيح السامي ، وكثرة ما به من آثار التخيل الزائف ، إلى نزعة الجمود التي كانت تسوده وتقره دائماً على محاكاة الأقدمين واحتذاء الأدب الجاهلي ، وهذا بطبيعته المتبدية ويثته الصراوية التي ترعرع فيها ، أدب أولى قليل الحظ من الخيال كثير الالتزام للواقع الحاضر ؛ هذا إلى اشتغال الأديباء بمدح ذوي السلطان واجتهادهم في تخيل كل منقبة وإضافتها إليهم ؛ أضف إلى ذلك أن الأدب العربي لم ينفع كما انتفع الأدب الانجليزي بأدب الاغريق ، فنجبت عنه تلك العوالم الزاخرة بالحقائق والخيالات . وقد اطلع العرب على فلسفة الاغريق لحاكي غير واحد من فلاسفتهم جمهورية أفلاطون بتخيل المدينة الفاضلة ، ولو اطلعوا كذلك على أديهم لاستفادوا منه فائدته الختومة ظل الأدب العربي مكبوح الخيال مائزماً للواقع مؤثراً للإيجاز متشبهاً بالرواية التاريخية المستندة ، وترك الخيال الواسع للعامية يسبحون في عوالمه التي تستهوي النفس الانسانية ، فجالوا في نواحي القصص يودعونهم أفكارهم على ما بها من قصور ، وآمالهم على ما بها من مذاجة وما يشوبها من شهوات الحس ، وثقافتهم على ما يتخالفها من جهل واضطراب ، وجاء الأدب العربي الفصيح في أزهر عصوره مشتملاً على ضروب من التخيل الفج لا يستسيقها لب ، ولا يقرها فن ، مشتملاً بجانب ذلك على وجدانيات صادقة وحكم وأمثال رائعة موجزة ، هي خير ما في الأدب العربي من لباب الفكر والشعور ، فالأدب العربي يبلغ قمة مجده بما فيه من آثار الحكمة ، لا بما يحويه من صور الخيال

فخرى أبو السعود